مقابلات بين أقوال جحا

وأقوال الشعراء والكتاب

للأستاذ كامل كيلانى

١ — الأسلوب الجحوى

لقد كان الأسلوب الجحوى — ولا يزال — مثالا رائعاً يفيض من إشرافه ومرحه على حقائق الحياة المرة فيكسوها من ألوانه الزاهية جدّة وإشراقا .

والأسلوب الجُحَوىّ الباسم : يكاد يقابل الأسلوب العلائى العابس . حتى ليبلغ جحا — أحيانا — فى سَبْر أغوار الحياة بسخريته المرحة الباسمة ما يبلغه المعرى بسخريته العابسة القاتمة .

وقد عرضت للموازنة بينهما فى غير هذا المقام ، فلا أجترىء بهذه اللمحة العابرة الآن .

ويحسبنا أن نعرض على القارىء أمثلة قليلة على ما نقول :

٢ — تقسيم الأرزاق

فنحن إذا استمعنا إلى صرخة « ابن الرومى » وحيرته فى تقسيم الأرزاق ، ومافيها من تفاوت يحار فى تعليله اللُّب وينقطع منه نياط القلب حين يقول :

« لا تعجبن لرزوق أخى هوج ... حظا تخطى أصيل الرأى طرافا
لخالق الناس أعراء بلا وبر ... كاسى البهائم أوباراً وأسوافا »

أو يقول :

« إن للحظ كيمياء إذا ما ... مسّ كلبـــاً أحاله إنسانا
يفعل الله ما يشـاء كما شا ... ء متى شـاء كائنا ما كانا »

أو أصغينا إلى « ابن الراوندى » ونستعيذ بالله من جرأته وتنطسه فى إلحاده وكفره حين قال :

« قسمت بين الورى حظوظهم ... قسمة سكران بيّن الغلط
و قسم الرزق هـكذا رجل ... قلنا له : قد جننت فانبسط »

إلى آخر ما يزخر به غلاة الساخطين الناقمين من أساليب تكاد لفرط عنفها تلتهب التهابا ، وتـكاد لثلبانها تقذف بالحم ، وترمى بشواظ من نيران الفكر ، ويكاد إهاب قائلها يتفطر من الغيظ والنقمة .

ثم رُحنا نستمع إلى جحا لنتعرف كيف يعبر عن هذه المعانى الحزينة بأسلوبه الباسم الذى تنطوى فى ابتسامته أعنف معانى المرارة والجد ، ورأينا العجب العاجب :

رأينا فيلسوفنا الساخر يحتكم إليه أربعةٌ من عارفيه ليقسِمَ بينهم زكيبة مملوءة بلحاً .

فماذا يصنع ليعبر بأسلوبه المرح عن تلك المعانى اللاهبة التى عرض لها أعلام الساخطين على توزيع الأرزاق ؟

يقبل عليهم متبالها ويسألهم متغابياً :

« أىُّ قسمة تريدون ؟ قسمتى أم قسمةَ الله ؟ » .

فيجيبونه على الفور : « بل قسمةَ الله يا جحا » .

فيعطى أحدهم بلحاتٍ خمساً أو ستاً .

ويعطى الثانى حُفنتين أو ثلاثا .

ثم يعطى الثالث كل ما فى الغرارة من بلح .

ثم يحرم الرابع فلا يعطيه شيئاً . ويتركه يضرب كفاً على كف من فرط الحيرة والدهش .

فإذا سألوه : « أىُّ قسمة هذه يا جحا ؟ » .

أجاب فى تغافل الساخر العميق :

« أليست هذه قسمةَ الله ؟ أليس يعطى واحداً دراهم معدودة ، ويعطى الثانى قليلا من الدنانير ، ويعطى الثالث من خزائن الأرض وكنوزها ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . ثم يترك الرابع فلا يعطيه شيئاً » .

أليس فى هذا لون من التعبير الجحوى الباسم المرح يترجم عن قول من أسلفنا من كبار الساخطين ؟

أليس فى هذا لون من قول المعرى :

« كذلك مجرى الرزق : وادٍ به ندى
ووادٍ به فيض ، وآخر ذو جَفْرِ »

وقوله :

« لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معرًّى أو أمير مدوَّج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج »

وقول الآخر :

« كان يحيي هالكا من ظمإ فضل ما أوبق ميتا من غرق »

أو قول الحلاج :

« كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا »

إلى آخر ما قاله المبدعون الساخطون .

٣ — النطف العذاب

وإلى القارىء معنى ثانيا :

« يقول « ابن الرومى » :

« وما الثلج اللاح بمرويات وتلق الرى فى النطف العذاب »

فكيف يعبر جحا بأسلوبه المرح عن هذا المعنى الجاد :

يخبرنا الرواة أنه كان يستحم ذات يوم فى البحر ، فلما اشتد به العطش جرع منه جرعة ليروى بها ظمأه ، فزاده الماء الملح عطشاً على عطش ، وأحس كأن معدته تلتهب .

فأسرع إلى نهر قريب منه فشرب منه نطفاً عذابا ، فارتوى وهدأت ثائرة العطش ، فأسرع إلى وعاء فملأه من النهر ثم صبه فى البحر قائلا فى ثورة الغضب :

« قبح الله غرورك أيها البحر ، فما أدرى فيم كبرياؤك وصلفك ؟ وما أدرى والله كيف يسمى ماؤك الأجاج ماء ؟ إليك أيها المتعجرف هدية أحضرتها لك من الماء لترى حقيقة الماء الجدير بهذا الإسم » .

٤ — فائدة المصائب

وإذا قال « ابن الرومى » :

« ومحال أن يسعد السعداء الدهر إلا بشقوة الأشقياء »

وقال المتنبي :

« بذا قضت الأيام مابين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد »

وقال أبو العلاء :

« غنى زيد يكون لفقر عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه
وجرم — فى الحقيقة — مثل جمر ولكن الحروف به عكسنه »

وقال :

« وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضا الحابل »

فكيف يعبر صاحبنا عن هذا المعنى بأسلوبه الجحوى الرائع

يخبرنا الرواة أن جحا سافر — ذات مرة — لزيارة بنتيه ، وكان زوج أولاهما زارعا وزوج الأخرى فخاريا : يصنع الفخار ويبيعه

فعرّج على الأولى يسألها : كيف أنت ؟

فأجابته : بخير — يا أبتاه — إذا أغاثنا الله فى هذا العام بما نأمله من الغيث . فادع لنا الله سبحانه أن ينزل علينا أمطارا غزيرة تحيي موات أرضنا ، وتجلب لنا ما نرجوه من رخاء وهناء .

ثم عرّج على الأخرى ، ولما سألها عن حالها أجابته :

نحن بخير — ياأبتاه — إذا انقطع الغيث عنا فى هذا العام ، فادع لنا الله أن يكف عنا المطر حتى ينجو من البوار والتلف ما عندنا من الآنية والتحف التى جهدنا فى صنعها من الفخار والخزف .

فخرج صاحبنا وهو لا يدرى بأى الدعوتين يبتهل إلى الله ؟ فصيبة هذه فائدة تلك . واستجابة إحدى الدعوتين — كما ترى — شقاء إحدى بنتيه وهناء الأخرى ، ولا مناص من ذلكم على أى الحالين ؟

وفى هذه القصة تعبير رائع عن قول المتنبي الذى أسلفناه :

« بذا قضت الأيام مابين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد »

ثم يخبرنا الرواة أيضاً : أن لصاً سرق منه عشرين دينارا . فذهب جحا إلى المسجد ضارعا إلى الله أن يعيدها إليه . وأراد الله سبحانه أن يلهم تاجراً من أهل القرية كادت العواصف أن تغرق سفينته أن ينذر لذلكم الرجل الصالح عشرين ديناراً إذا كتب الله السلامة لركبه .

فلما ظفر التاجر بالسلامة ، وفى لصاحبنا بنذره بعد أن قص عليه قصته .

فأطرق جحا برأسه إلى الأرض ثم قال بعد تأمل عميق :

« تباركت يارب فى علاك : لو أننى سلفت أحداً غيرك هذا المبلغ لأعاده فى هدوء ، دون أن يخطر على باله أن يزعج أحداً ويمرض حياته للتلف ، ليرد مبلغى إلىّ »

وهو — كما ترى — تعبير جحوى بارع ينطوى — فى